أثر وسائل الإعلام في اللغة

وظيفة اللغة الإعلامية في المقام الأول، تعبيرية أو تبليغية، فالمتكلم ينتج اللغة ليعبر بها عما في نفسه، وقد عرف ابن جني اللغة، فقال: "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، فوظيفة اللغة التعبير، والغرض أو المقصد أو الهدف من التواصل الإبلاغ، وكلمة قوم تعني أن اللغة لها طبيعة صوتية اجتماعية، فاللغة تولد في كنف المجتمع، فهي ظاهرة اجتماعية توجد حيث وجد المجتمع، وهي نظام اجتماعي يتواصل بها المجتمع ويعبر بها عن أفكاره، وتنمو اللغة بنمو المجتمع وتتسع باتساعه وتتطور بتطوره.

وأهم وظائف اللغة الإبلاغ، وتعد أهم قنوات الاتصال، فهي الوسيلة الأولى في التواصل الاجتماعي لغزارة الدلالة فيها ورصانة التعبير، وقوة الإبلاغ والتأثير، وبها أساليب متنوعة يوظفها الإنسان في التواصل للتأثير والإقناع، فهي أهم وسائل الاتصال الإنساني لما بها من إمكانات عالية لا تتمتع بها الحركة أو الإشارة في التعبير، وقد نالت اهتمام اللغويين والتربويين وعلماء النفس والاجتماع وغيرهم من المتخصصين في العلوم الإنسانية، لما لها من قدرة عالية في الإفهام وتوصيل المعلومات، والتعبير عن الأفكار في أشكال لغوية تتعدد بتعدد الجمهور، وتختلف باختلاف مستوياته.

وتوجد علاقة حميمة بين اللغة ووسائل الإعلام، فهي أهم قنواته الإبلاغية في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة. وظهر حديثاً ما يعرف بعلم الإعلام اللغوي: وهو العلم الذي يدرس لغة الإعلام، وأثرها في الجمهور وأهم الأساليب اللغوية التي يستخدمها الإعلاميون، والمستوى اللغوي في التخاطب الإعلامي.

واستفاد الإعلاميون من الأحكام النظرية والتطبيقية التي يقررها علم اللغة في الميدان الإعلامي، وأثر الدراسات والآراء التي طرحها علم الإعلام فى اللغة، وكيف تعامل الإعلاميون مع نسق العلامات اللغوية التي يستخدمونها في التفكير والإقناع أو توصيل المعلومات والأفكار من خلال وسائل الإعلام، وما هي أفضل الوسائل التي يستخدمها هذا العلم، ومدى تأثيرها وتأثرّها بما قدمه له علم اللغة من أحكام نظرية وتطبيقية[1].

---

(١) ارجع إلى: البحث الذي أعده الدكتور هادي نهر (من العراق) بعنوان اللسانيات والإعلام التأثير والتأثر. مجلة اللسانيات العربية والإعلامية، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث، تونس، ١٩٥٩م.

ولقد كان لاختراع الكتابة أثر كبير في التواصل البشري، ولها فضل كبير على اللغة، فهي التي حفظت تراثها ومفرداتها، واستطاع الإنسان بها نقل لغته إلى مناطق بعيدة، فاجتازت موانع كثيرة، لا تستطيع أصوات اللغة اختراقها أو بلوغ المتلقي الذي يعيش بعيداً عن المرسل، والكتابة التي نقلت اللغة من صورتها السمعية إلى صورة تراها العين أو تلمسها اليد، وتعد نشأة الكتابة ثورة في الاتصال الإنساني، فقد استطاع الإنسان تأسيس منهج علمي اكتشف به أسرار الكون، فاخترع تقنيات مفيدة وضارة.

وأول ما نزل من القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[العلق:١]. والقراءة يلزمها نص مكتوب والنص المكتوب يلزمه قلم ليكون مكتوباً أو مسطوراً، والقراءة تعني أن شخصاً كتب ودون ما عرف، والنهضة الإسلامية مبدأها العلم، فتطور في إثره الخط العربي، وقامت ثورة إعلامية في العالم الإسلامي، فقد نشأ ديوان البريد في العالم الإسلامي، وظهر الكتاتيب والمكتبات والمدارس والصحفيون (كتبة الصحف)، والوراقون، وظهر في العالم الإسلامي كُتَّاب ملأوا الأرض علمًا وظلت الكتب تنسخ، واختص بالعمل فيها أهل الخط الذي يعد مفتاح الرزق لمن يحذقه، واستطاع الإنسان اختراع آلات الكتابة وكانت بمنزلة ثورة ثانية في التواصل البشري؛ فقد نشأت في عقب الطباعة الصحف والمجلات وكان انتشارها محدوداً وإنتاجها ضئيلاً إلى أن استطاع الإنسان تطوير الطباعة بآلات كهربية تعمل بطاقة قليلة في وقت وجيز.

وقامت ثورة ثالثة في الاتصال، وهي ثورة وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، وهي وسائل اتصال سريعة جداً، وواسعة الانتشار، وسهلة الإرسال والبث، ولها القدرة على اجتياز العوائق الطبيعية والبشرية، وتستطيع أن تخترق مجالات كثيرة ذوات خصوصية، والثورة الرابعة في الاتصال أحدثها "الكمبيوتر" وثورة المعلومات عبر الإنترنت، ويعد هذا أعظم خطر تقني اكتشفه الإنسان[1]. لقد ساهمت هذه التقنيات في سرعة تداول الأنباء، وانتقال المعلومات، ورفعت الحواجز بين الثقافات، فلم تعد هنالك خصوصية أو عزلة. وقد أحدث نمو وسائل الاتصال تغييرات اجتماعية شاملة فكرية ومعيشية، وأحدث هذا التواصل

---

(١) اخترع جوتنبرغ الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر، وظهر المذياع في بداية القرن العشرين، وظهرت الإذاعة المرئية قبل بداية الحرب العالمية الثانية.

السريع تطور سريع في حياة المجتمع، فأصبح التواصل بين أفراده مفتوحاً، وانصهرت المجتمعات وتفاعلت أفكارها وثقافاتها، ونشأت ثقافة عالمية جديدة تدخل تحت ما يعرف بالعولمة الثقافية، وقد كانت الثقافات قبل قطرية أو قومية أو دينية، يقال: الثقافة الإسلامية، الثقافة العربية، والثقافة الشرقية، والثقافة الغربية، ولكن يصعب في ظل النظام العالمي الجديد تخصيص مصطلح الثقافة بأمة من الأمم أو دين في الأديان لصعوبة تخليص الثقافة أو تنقيتها من الآثار الخارجية التي تهب عليها من كل مكان وتجتاح حدودها اختياراً وقهراً، فالثقافة المعاصرة ثقافة عالمية، والفضل في ذلك لوسائل الاتصال الحديثة التي لعبت دوراً رئيساً في توحيد الثقافة العالمية، أو تفاعل الثقافات المختلفة في العالم وانصهارها في إناء واحد، فتولد ثقافة جديدة مفتوحة تحمل في شخصيتها أنماطاً متباينة وتعددية، ولا هوية فيها ولا نسب" اتسع الفتق على الراتق".

وقد تكون الغلبة فيها للدول المهيمنة اقتصادياً، فالاقتصاد من أهم العوامل المؤثرة في اتجاه الثقافة العالمية الجديدة، وقد كان الأمر قبل بيد النهضة الثقافية التي هبت في أوربا وأثارها مفكرون وعلماء تقنيون، لكنها الآن من صناعة رأس المال وتفسر الظواهر العالمية في ضوء الثروات الطبيعية والبشرية، وتضع قدراً للبشر في الحياة مقدوراً بقوتهم الاقتصادية، فالأمم الفقيرة متخلفة ولا قيمة لها، وثقافتها سبب مباشر في فقرها، ويجب عليها أن تستبدل ما هي فيه بما تمليه عليها الدول الغنية.

وأعادت القوى الكبرى تقييم الأمم بحسب الثروات ومهدت لغزو الأمم ذات الثروات بحملة إعلامية لاستقطاب الرأى العام وإقناعه بأكاذيبها لتبرير غزوها ابتغاء الهيمنة على ثرواتها، تحت شعار الحرب على الإرهاب، والقضاء على محور الشر، ونشر الديمقراطية، وتروج هذه الدول لهذه الأفكار من خلال وسائل الإعلام، التي تمارس أشكالاً إقناعية متعددة، وتجد لها أثراً في بعض العقول الضعيفة أو النفوس التي ترغب في الانتفاع من تلك النعرات الهشة.

والأمم التي ترغب في إقامة حضارة تضع لبناتها الأولى على أرضها، وتقيم حضارتها لنفسها، فتجد في هذه الحضارة شخصية الأمة التي شيدتها فهذه حضارة مصرية وتلك فارسية وأخرى يونانية، وهنالك أوربية، لكننا لم نسمع قط عن حضارة أمريكية عربية، ولن نسمع البتة !

واللغات العالمية أصبحت مهددة أمام هذا السيل الإعلامي متنوع اللغات، والمشارب، ولكن هل يصنع الإعلام الدولي لغة مشتركة يتواصل بها العالم، أم سيلزم العالم بلغة أقوى دولة ؟!

ولغة وسائل الإعلام هي اللسان الذي يتحدث به الإعلاميون في خطابهم اليومي إلى الجمهور وأستثني من بين هؤلاء لغة الصحافة، فأنا أعني لغة البث المباشر التي يتلقاها الجمهور كافة بمستوياته المتعددة متعلمين وأميين.

ولا تعني لغة الإعلام اللغة الفصيحة في وسائل الإعلام العربية، فوسائل الإعلام العربية لا تتحدث هي جميعها اللغة العربية الفصيحة، ولا تبث جميع برامجها باللغة الفصيحة، فاللغة الفصيحة تشغل جزءاً ضئيلاً في وسائل الإعلام؛ لأن الإعلاميين يتحدثون اللهجة المحلية عن قصد ليتواصلوا مع الجمهور أو يفعلون ذلك جبراً وليس اختياراً؛ لأنهم يعجزون عن الحديث بالعربية الفصيحة، فقد تعلموا في مدارس أجنبية أو في الخارج أو هم غير متخصصين في اللغة ولم يتلقوا دروساً فيها، أو لأن بعضهم من الأوساط التي لا تحسن الحديث بالعربية ولا ترغب فيها بل عنها، ومنهم من لا يحسن نطق مخارج الألفاظ ناهيك عما يعانيه بعضهم من أمراض النطق فلا يستطيعون نطق الراء، واللام، والجيم، والسين، والظاء، والثاء، والذال وذلك لعيب فى عضو الكلام.

ولا يميزون بين الأصوات فيخلطون بين التاء والطاء، والظاء. والزاى، والذال والزاي، والثاء والسين، والسين والصاد، والقاف والكاف، وغير ذلك من عيوب النطق، وذلك لجهل بمخرج الصوت وصفته.

ولغة وسائل الإعلام تعني – كما هو شأن الإعلام في مصر – لغة سكان العاصمة، ولا شك أن لغة الإعلام في العالم العربي لا تخرج عن هذا وأستثني من بينهن بعض الإذاعات والقنوات الدينية والثقافية، وبعض البرامج العلمية التي لا يحسن الحديث فيها إلا بالعربية الفصيحة.

وهذه القنوات تتواصل مع الجماهير بلغة الخطاب اليومي الدارج، وقد أفقدها هذا المستوى اللغوي الهابط دورها التثقيفي الجماهيري، فوسائل الإعلام لديها القدرة على تعليم الجمهور، ويمكنها أن ترتقي بلغته، وبثقافته، فتؤدي دورها الإصلاحي المنوط بها، لكنها تؤدي دوراً تخريبياً في تسخيف الفكر وتغييب الوعي وتغريب الشخصية العربية، وإسقاط

هويتها، وتقف من وراء ذلك بعض الحكومات التي تحرص على تسخيف الوعي الجماهيري، لتنفرد بالقرار دون مشاركة الشعب المغيب.

إن اللغة أداة التأثير والإقناع في الإعلام المسموع والمرئي والمكتوب، وهي وسيلة الاتصال الأولى في هذه القنوات الإعلامية، ولها أثر كبير في المجتمع، وأصبح الاتصال بالجماهير علماً اجتماعياً جديداً، وفيه نظريات، وله متخصصون لما له من دور كبير في التأثير[1]، ووسائل الإعلام المشبوهة تنحو نحواً تخريبياً، تقوم فيه بالتعتيم، وبث قيم هابطة تخدم بعض المذاهب الشاذة الموجهة لتخريب مؤسسات الدولة التثقيفية.

ويعد الاتصال بالجماهيري عملية معقدة؛ لأنه موجه صوب جمهور كبير غير متماثل، مختلف المشارب، مجهول، متعدد الهوية والجنس والعقيدة، والمرسل مطالب بخطاب يتكيف مع هذه الأنماط المتعددة، ويتمتع بخصائص أسلوبية تميزه عن غيره من الخطابات التي توجه لجمهور شخصيته معروفة، فيصنع له المرسل خطاباً يناسبه.

فالصلة وثيقة بين اللغة والإعلام، فهي أهم وسائل التخاطب البشري وأكثرها فاعلية وأثراً، وقد استطاعت وسائل الإعلام برموز غير لغوية مؤثرة أن تدعم بها دلالة اللغة، وتقوي تأثيرها، ومن ذلك الاستعانة بالصوت والصورة والرمز، فالصور تظهر إلى جوار الخبر، وقد تكون ثابتة أو متحركة أو تنقل الحدث مباشراً وعليه تعليق يفسره، فتعطي للمتلقي شعوراً بالمعاصرة والتفاعل المباشر مع الحدث والمشاركة فيه، فيصبح مشدوهاً عند تلقيه بثاً مباشراً يقدم له جديداً، وتقوى الصورة عندما تكون متحركة وتتصل مباشرة بالحياة اليومية التي يعاصرها المتلقي.

وتحرص وسائل الإعلام على تأكيد الخبر أو مضمون الرسالة بكل ما تملكه من أدوات إقناعية لغوية وأدوات توظفها من العالم الخارجي نحو نقل الصورة حية أو البث المباشر، وتعليق المراسلين.

وتلجأ وسائل الإعلام إلى كافة المستويات اللغوية التي تلائم جماهير المتلقين، فهي تارة تلتزم العربية المتوسطة وأخرى تتحدث الخطاب اليومي، فتكيف لغتها مع الجمهور الذي تتواصل معه.

---

(١) ارجع إلى: اللسانيات والإعلام، والتأثير والتأثر، مجلة اللسانيات العربية ص٣٥٧.

وقد استطاعت وسائل الإعلام صناعة خطاب شعبي جديد، وأصبح مؤلفًا للجماهير المتنوعة على اختلاف تكوينها الثقافي ومستواها التعليمي، ويشبه هذا الخطاب اللغة المشتركة التي تتفاهم في إطارها الجماعات ذوات اللهجات المختلفة، وهذه الجماعات تستمع إلى خطاب إعلامي واحد، وقد كان هذا مفتقداً قبل اكتشاف وسائل الإعلام الحديثة، فقد كانت الجماعات تعيش عيشة الغرباء في المواطن التي تنزل بها، فلم يكن هنالك تواصل مباشر فيها.

ويعد عدم التواصل بين أصحاب اللغة في القديم من الأسباب التي غزت نمو اللهجات، فقد كانت القبائل العربية لها لهجات خاصة، وتعد لغة سكان البادية أفصح اللغات (اللهجات) وقد أطلق عليهم الأعراب وهم أهل الوبر الرُّحل، مثل تميم، وهذيل، وأسد وغفار وأسلم وهوازن وغطفان وجهينة وغيرهن من القبائل التي عاشت مجتمعة تقيم معاً وترحل معاً، فاحتفظت كل قبيلة بخصائصها الأسلوبية في حديثها وتميزت عن غيرها، وهؤلاء غير سكان المدن مثل مكة والطائف ويثرب ممن كانوا ينزل بهم الناس، فيخالطونهم في الحديث ويتأثرون بغيرهم في تواصلهم اليومي كما أن أهل المدن أكثر تأثراً بالثقافات الوافدة ولغات الأمم التي يتصلون بها، وأنهم أكثر عرضة لعوامل التطور الحضاري والغزو الثقافي من هؤلاء الأعراب الذين يعيشون في عزلة شبه دائمة بالصحراء يتعقبون الكلأ، ونزول المطر.

وقد حافظت هذه العزلة على لهجات هذه القبائل فترة طويلة حتى وطأت أرضهم جيوش الفتح، فدخلوا في الإسلام، فحملوا اللواء، وتركوا البداوة بعد أن اطلعوا على حيات المترفين من أهل الحضر وما يرفلون فيه من نعيم، وشخصت أبصارهم عندما رأوا حضارة الأمم الأخرى، هنالك سقطت أسوار العزلة، وتعرضت لهجاتهم لأعنف حملات الغزو من قِبَل لهجات أهل الحضر، ولغات الأمم الأخرى، كما خالطهم الأعاجم فأفسدوا لهجتهم النقية التي احتفظت بخصائص اللغة الأم، وهذه اللهجة النقية التي عدها علماء العربية مادة غنية يتخذون منها أمثلتهم وشواهدهم في تأسيس قواعد العربية كما أقاموا معاجم اللغة من ثروتهم اللفظية، وعدوها لغة فصيحة يحتجون بها ويهملون ماعداها من لغات المدن والقبائل التي خالطت الأعاجم، فأفسدوا صفاء لغتهم بألفاظ دخيلة، واعوج لسانهم ففشا فيهم اللحن، وعجزوا عن أن يقيموا لفظًا صحيحاً يوافق لغة الأعراب الذين أقاموا لغتهم صحيحة شفاهة دون أن ينظروا في قواعد النحو أو معاجم العربية.

لقد أصبح أهل المدن بعد أن خالطوا الأعاجم في عداد الأعاجم؛ لأنهم لا يستطيعون أن يقوّموا لسانهم الذي تأثر بمظاهر لغة الأعاجم إلا من تلقى منهم قواعد العربية، فقد تحولت العربية من لغة خطاب يرتجلها العربي القح إلى لغة تعليم ينظر المتكلم بها ما تعلمه ليقيم عليه خطابه، ولا يخلو لسان المتكلم من لحن أو سقط أو ضعف.

ويلاحظ حديثاً أن لهجات الأقاليم تندثر أمام لغة وسائل الإعلام، وأصبحت هنالك لغة مشتركة هي اللغة التي تتحدث بها وسائل الإعلام، وهي لغة لا شك هزيلة، وليست من اللغة الفصحى في شيء اللهم إلا بعض البرامج الواعية التي يشرف عليها مقدم مثقف.

فقد لاحظت أن بعض قبائل البدو التي كانت تجوب منطقة الدلتا في مصر لها لهجات خاصة، وكأنها لغة مستقلة، ولكن هذه القبائل استقرت ببعض المناطق الريفية في قرى فتخلت عن لهجتها وتحدثت لسان الفلاحين الذين حلت بأرضهم، فكانت الغلبة للهجة الفلاحين وتلاشت لهجتهم، وهذا لا يعني تلاشيها تمامًا فقد تسربت بعض مفردات هؤلاء الأعراب إلى لسان سكان المناطق التي حلوا بها، وتخللت بعض ألفاظهم ألفاظ الفلاحين ونشأ بينهم لساناً مشتركاً يتواصلون به، ولكن بقيت بقية من لهجة الأعراب يتحدثون بها فيما بينهم، بيد أنها معرضة هي الأخرى للاندثار، فالأجيال الجديدة منهم خلعت الجلباب والعمامة، وتعلموا في المدارس وأدوا الخدمة العسكرية.

ويلاحظ أن اللهجات في عصرنا الحديث تتعرض لحملات إبادة واسعة لتحل محلها لغة مشتركة، وقد يكون الأمر في ظاهره حسناً، ولكنه في باطنه يحمل خطراً عظيماً، فاللهجات وإن اختلفت فهي تحمل في صفاتها خصائص العربية الأم وكثيرًا من مفرداتها الفصحى، ولكن هذه اللغة المشتركة ما هي إلا شوائب لحنية وخليطاً من اللغات الأجنبية، وتبتعد في مظاهرها عن اللغة الفصيحة التي نجد كثيراً من رواسبها في لهجات المناطق النائية التي عاشها في شبه عزلة، وهي غير المناطق التي فشا فيها التعليم فانفتحت على العالم الخارجي، ففسد لسانها مثلما حدث للسان المدن الكبرى.

فاللغة العربية بعد أن أُهملت في الوسط العلمي تعيش غريبة في بيتها، فالوسط العلمي يتجاهلها ولا يستخدمها لغة رسمية له ومن ثم فهي تتقهقر أمام تقدم غزو اللغات الأجنبية وتنزوي بعيداً عن الأضواء؛ لأنها ليست لغة العلوم، وليست لغة العلم في أمة تنسب إليها، ويدعي القائمون على العلم أنهم عرب نسباً وليس سلوكاً، ومازالت قضية تعريب العلوم

بين مؤيد ورافض، وضاعت العربية الفصيحة بينهما. وتعد لغة المتعلمين أسوأ من لغة الأميين في المناطق الريفية النائية، بل قد ينطق الأمى بما هو أفصح؛ لأن مصدر لغته يمتد إلى العربية، بينما لغة المتعلمين مصدرها مفردات دخيلة ناهيك عن تأثرهم بمخارج اللغات الأخرى، فضاعت مخارج الأصوات العربية، فالقاف انقلبت كافًا والثاء تاء والظاء زاياً والذال زاياً أيضاً والجيم العربية انقلبت "g" إنجليزية، أو "j"، فكثير من الأصوات انقلب إلى ما يعادلها في اللغات الأخرى أو القريب منها مخرجًا أو صفة.

أما عن التراكيب اللفظية فهي أكثر من أن تحصى؛ لأنها تزيد كل يوم، مثل الباب الحديد، والأصل باب الحديد، وإسلامية المعرفة والأصل المعرفة الإسلامية، ومثل العربية السعودية، والأصل السعودية العربية تأثرًا بالإنجليزية التي تسبق فيها الصفة الموصوف، وغير ذلك من التراكيب التي تترجم كما هي من وسائل الإعلام دون أن يكون المترجم العربي ملمًا بأصول لغته، فيفسد اللسان بما يلقى عليه كل يوم من تراكيب ويرددها مراراً حتى تعلق بالأذهان وتصبح تركيبًا قائمًا في الخطاب اليومي. أضف إلى ذلك المفردات ذات الدلالات المسموعة التي تتناقلها وسائل الإعلام وتحمل مضامين مخالفة للدين وتقاليد المجتمع، والتي تسيء الفهم مثل: المتطرفين المسلمين، الإرهاب الديني، الإرهاب الإسلامي، الإسلام السياسي، الأصولية الإسلامية، المتعصبين المسلمين، ودلالة هذه التراكيب لا تنصب على أشخاص بل ترتبط في أذهان المسلمين وغيرهم بالدين نفسه، فالإسلام بهذا المفهوم دين تطرف وإرهاب؛ لأن اسم الإسلام قرن بالإرهاب والتعصب، ثم حملوا الجزء على الكل في "الإسلام السياسى"، فقد فصلوا الإسلام الذي يشمل العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وضمنوه في جزء من جزء، وهو السياسة، وهو تكثيف للدين فى فرع من فروع مصالح الدنيا، كما أن تركيب الإسلام السياسي يخلو من مضمونه الحقيقي، وهو السياسية الشرعية التي تقوم على روح الدين ولا تخالف نصاً وهدفها مصالح الناس، ففرغ الإسلام من مضمونه هذا وألبسوه مفاهيم باطلة قد تعني الجماعات الانفصالية التي تتبنى أفكاراً دينية، وتفسر النصوص وفقاً للفكر الذي تبناه وتأول النصوص في ضوء ما تؤمن به من أفكار، وكذلك الجماعات التي تناهض السلطة في الأقطار الإسلامية بدعوى أنها علمانية أو لا تطبق الشرع أو أنها منحرفة ظالمة توالى الغرب.

وكذلك يفسر الإسلام السياسي في ضوء العمليات المسلحة التي تقوم بها بعض الجماعات في صراعها مع السلطة، فالإسلام في مفهوم هؤلاء وثيق الصلة بممارسات الجماعات سواء أصابت أم أخطأت وغالباً هي في أعينهم مخطئة، والإسلام في ضوء سلوك المسلمين أصبح شبحاً مرعباً وتطرفاً في مفهوم من لا يعرفه، وكثير من المسلمين لا يعرف عنه شيئاً، ومن ثم فليس غريباً أن يخرج من المسلمين أفراد يرددون أباطيل أعداء الإسلام، بل ارتبط الالتزام في الإسلام بهواجس مخيفة تنتاب رجال السلطة، وتؤرقهم فشبح الملتزم يهدد أمنهم بل وأمن المجتمع.

لقد تحول الإسلام من عقيدة روحية ترقى بصاحبها روحياً ومادياً إلى عكس حقيقته، فالناس لا يتلقون الإسلام من القرآن والسنة ليهذبوا سلوكهم في معاملاتهم بل يتلقون الإسلام من أخلاق الناس، ويعكسون هذه الممارسات المشينة على الإسلام، وكأنهم يصححون الدين، فنبذوه ودعوا إلى تجديد الخطاب الديني، فغربوه، وجعلوه خطاباً علمانياً، ويدعون إلى تصحيح مفهوم الإسلام عند الغرب، ويضجون غضباً وتأخذهم الحمية عندما تتبنى الدول الغربية موقفاً ضد المسلمين أو الأقليات المسلمة في الغرب، أو تمنع ارتداء الزى الإسلامى، والإسلام يحارب علناً في الدول الإسلامية، ويحتاج من يدافع عنه، ويصحح مفهومه عند المسلمين! ويتحدثون عن العروبة والوحدة العربية، وقد ضيعوا الدين الذي جعل لهم وجوداً دولياً وضيعوا لغته التي حفظها، وحفظتهم من أن يكونوا غير عرب، والإسلام واللغة العربية هما ما يميز الشخصية العربية محلياً ودولياً، والعرب أنفسهم لا يعيرونها اهتماماً، فأنى تكون لهم وحدة أو تقوم لهم جماعة ؟!

وتعيش اللغة العربية فترة عصيبة من تاريخها العريق الزخم بمعطيات تراثية عظيمة، جعلتها صاحبة أكبر تراث عالمي وأطوله عمراً، وأكثره تنوعًا وشمولية، فلا تستطيع أمة أخرى أن تفاخر الأمة العربية الإسلامية بتراثها، فالتراث العربي يضرب بجذوره قبل الإسلام في أربعمائة عام أو تزيد، وأثمر ثماره عبر القرون الفائتة، ومازال يثمر ويعطي إلى يومنا هذا، وهو قائم ومستمر – إن شاء الله – في كنف لغة القرآن الكريم إلى يوم الدين، وسيظل منسوباً إلى اللغة التي كتب بها وهذه اللغة رهينة كتاب الله تعالى، ومحفوظة به إلى ما شاء الله.وهو تراث فريد وزخم، فقد شاركت فيه أمم عديدة وتفاعلت فيه مشارب ثقافية مختلفة، وانصهرت معاً وتلاقحت وأفرزت إنتاجاً عظيماً، وهذا التراث أنجزه مسلمون وغير

مسلمين، فقد أبقى المسلمون على تراث الجاهلية الأدبي، وجعلوه مقدماً وأصلاً في العربية والأدب، وقبلوا كذلك مشاركة غير المسلمين في إقامة الحضارة الإسلامية وعلومها، وقد كانوا جميعًا مخلصين أوفياء لواجبهم الثقافي.

وقد استطاعت العربية بما لها من مكانة دينية وسياسية وخصائص تتمتع بها أن تكون لساناً لكل الأمم التي دخلت في الإسلام وخضعت لسلطان دولته الممتدة في نحو ثلاثة أرباع العالم تقريباً، واستطاعت كذلك أن تفي بمتطلبات كافة الحضارات، فاتخذها الناس لساناً وسارعوا في تعلمها، وأصبحوا علماء فيها، وخلدتهم هذه اللغة في التاريخ فصاروا أعلاماً في مجالات مختلفة، وشاركوا مشاركة فعّالة في تاريخ هذه الأمة، فكل من عاش تحت سلطانها يعد ابناً من أبنائها وواحد من أبناء ثقافتها مسلمين وغير مسلمين، واستطاعت العربية أن تغزو لغات أخرى، فتسربت إلى ألسنة الناس وصارت لساناً لهم، فتعربت ألسنتهم، وأصبحت لغاتهم الأصلية جزءاً من التاريخ الغابر، وليس لها من الحاضر شيء.

وهي الآن تعيش فترة حالكة ومحنة محدقة، وتخوض حرباً ضارية في الداخل والخارج، فبعض أبنائها يواجهونها قصداً وعن غير قصد، فبعض الأعراق التى تعربت قديماً طفقت اليوم تحى لغاتها القديمة تعصباً لقوميتها أو لعرقها القديم، فالبربر أحيوا لغتهم واتخذوها خطاباً، وجعلوا لها رموزاً كتابية، والأقباط فى مصر نكثوا على رءوسهم ونفروا من عروبتهم، فجندوا طاقاتهم فى تعليم القبطية فى الكنائس والجمعيات، والدولة مشغولة عن هذا الاتجاه الذى ينزع نزعة عرقية، ليفض وحدة الوطن بالطعن فى لسانه، وهذا تمهيد لتمزيق الوطن.

فالقبطية صارت حربة مصوبة إلى نحر الوطن، ونشرها تمهيد للمطالبة بها لغة رسمية إلى جوار العربية، وكثير من نصارى مصر يأبى أن يتكلم العربية الفصيحة نفوراً وليس عن جهل بها، فالعربية مهددة داخلياً وخارجياً، واللغات الأجنبية تغتال أرضها، وتنتهك حرمتها بأيادي أبنائها، وباتت غريبة وحيدة شريدة لا تجد راعياً ولا قلباً واعياً، وأصبح العالم بها سُخَرَة وضُحَكة، يستهزأ به إعلامياً واجتماعياً، وأصبح معلمها جزءاً من تراث الجاهلية في أعين أبناء العروبة.

ناهيك عما تلاقيه من غلاة المتعصبين من العلمانيين وبعض رءوس النصارى الذين يلوون ألسنتهم بالعربية حسداً من عند أنفسهم، غير أن بعض نصارى الشام والعراق لهم

جهد محمود فى العربية وتراثها؛ لأنهم يرونها لغتهم الأم فلا يعدلون عنها بغيرها، وهم قليل أمام الغلاة المتعصبين.

والعربية لغة الثقافة والتراث، وهي في نص دستور الدولة لغة رسمية بيد أنها في المؤسسات التعليمية والإعلامية والثقافية لغة من الدرجة الثانية، وتقدم عليها اللغات الأجنبية، فالطفل ينشأ على اللغات الأجنبية في المرحلة الأولى التعليمية، ووسائل الإعلام أكثر حفاوة بغيرها من اللغات، ناهيك عن الأسماء الأجنبية التي تعج بها والإعلانات واللافتات، والإشارات التي تكتب باللغات الأجنبية في دولة عربية، ورجال السلطة يبذلون جهود كبيرة لتوحيد الصف العربي، والعربية التي سيوحدون عليها، غابت عن الصفوف الأولى من بين اللغات عامة.

ووسائل الإعلام لديها القدرة على تمكين اللغة العربية من الألسنة وتيسيرها في الخطاب اليومي، وتعد أفضل الوسائل التعليمية في الارتقاء بمستوى لغة التخاطب، وذلك إن التزمت في خطابها اللغة العربية الميسرة وأن تقدمها في ثوب جديد صحيح سهل يناسب مستويات المجتمع.

والعربية ليست عربية جنس أو أب وأم بل عربية اللسان، فمن اتخذها لساناً فهو عربي، وهي ميزة لها دون اللغات عامة، فمن يتحدثون الإنجليزية أو الفرنسية ليسوا إنجليز أو فرنسيين بيد أن كل الأقطار التي دخلها الإسلام وتعربت صارت عربية، فشمال أفريقيا عربي وجنوب شرق أفريقيا عربي وشمال الجزيرة عربي، وكاد أبناء الهند وإيران وتركيا يكونون عرباً بيد أن عصبية الجنس والصراع السياسي، ونعرة القومية، وفساد بعض ولاة العرب كانوا أسبابًا مباشرة حالت بينهم وبين أن يكونوا عرباً.

والعرب يفرون من عربيتهم ويهملونها طلباً للغات الأجنبية متوهمين أنها سبيل التقدم والحضارة، وتركوا ركناً أصيلاً فى بناء تلك الحضارة، وهو تأسيس شخصية قوية مستقلة ليست عالة على غيرها أو تابعة، والشخصية العربية هزيلة وغير واضحة المعالم، ولم يسلك العرب مسالك الحضارة، فقد نقلوا عن الغرب نذر انهيار الحضارة، فبدأوا من حيث تنتهى الحضارة، فالرفاهية ورغد العيش ومظاهر الحياة العابثة الغربية أسوأ مظاهر حياة الغرب، وسبب تردى المجتمع وانهياره، والغرب نفسه يلاحق آفاته ليحفظ ما بقى له، والعرب تسربلوا بآفاته واتخذوها قناعاً مشوهاً للتشبه بهم، وهنالك أمم متقدمة أكثر تعصباً لأعرافها

ولغاتها وفيها مشقة عليهم غير أنهم لا يعدلون عنها إلى غيرها بدعوى الحضارة، فاليابانيون يحافظون على أعرافهم ولغتهم ومظاهر حياتهم وهم أمة متقدمة، والألمان كذلك، وهم يعيشون فى محيط يخالفهم ويخشون الذوبان فيه، وإسرائيل ليست عنا ببعيد، فقد أحيت العبرية ووضعت أسساً ومعالم للشخصية اليهودية لتحافظ على الدولة العبرية ومعظم شعبها غربيين ولنا فيها أمثال وعبر ولنا معها أيام انكسرنا فيها، وقلنا: انتصرنا انتصرنا، ويكفى العرب أن يأخذوا بالأسباب التى جعلت إسرائيل قادرة على مواجهتم جميعاً حتى انتصرت عليهم فى كل المواقع (إلا معركة رمضان تعادلت فيها مع مصر)، وهى دولة ديمقراطية، تحترم القانون وينتمى شعبها إليها وفيها قيادات وفية، واللغة الرسمية فيها العبرية، والمثير للدهشة أن اللغة العربية لغة ثانية فى إسرائيل !

** ** ** **

التأثير والإقناع

اللغة كيان حيّ متفاعل يؤثر ويتأثر، والتأثير **Influence**: قدرة اللغة على إحداث أثر مباشر في متكلميها وتفاعلهم معها واستجابتهم للمقاصد التي تعبر عنها، ورد الفعل استجابة مباشرة للتأثر.

واللغة هي الأداة الأولى التي يستخدمها السياسيون في قيادة شعوبهم، فهي السلاح السلمي الذي يستطيعون به توجيه الجماهير لمقاصدهم، ويكبحون بها إرادتهم، ويخوضون بها معاركهم السياسية. وهي أداتهم في تغييب المعارضة، وتهميش دورها في الحياة السياسية.

واللغة ذات مؤثرات دلالية يحققها المعنى الحسن، ومؤثرات لفظية يحققها نظام الصنعة اللفظية، وما تتمتع به الألفاظ من خصائص أسلوبية تزيدها جمالاً في تراكيبها السياقية، ومؤثرات صوتية نحو المقاطع المتناسقة والمتوازية والنبر والتنغيم، والإيقاع والوقفات، وهي عناصر صوتية لها أثر كبير في الدلالة، وتؤثر تأثيرًا مباشرًا في المتلقي، المؤثرات الصوتية يتمتع بها الخطاب المنطوق دون المكتوب، إضافة إلى التعبيرات الجسمية والسياق الخارجي.

وقد كان الخطاب المنطوق مؤثراً في الجماهير التي تتلقاه مباشراً فقط، وتأتي درجة التأثير أقل فيمن يسمعونه من الإذاعة، ويفقد كثيراً من إمكاناته التأثيرية إن دُوِّنَ وتلقَّاه الجمهور مكتوباً، ولكن وسائل الإعلام المرئية تنقل الخطاب إلى الجماهير دون أن يفقد شيئًا من عناصره[1].

ولقد ازداد أثر الخطاب السياسي بفضل انتشار وسائل الإعلام، التي يسرت على المرسل إرسال رسالته إلى عدد كبير من الجماهير، إلى جانب أن الإذاعة المرئية (التلفاز) التي تنقل الخطاب صوتاً وصورة معاً لجمهور غائب، وهو ما يجعله أكثر تأثيراً من الخطاب المسموع والمقروء، إلى جانب أن الإذاعة والتلفاز أعطا الخطاب المنطوق أهمية كبرى وحافظا على سماته النطقية أو الأدائية، والتلفاز حافظ على الإشارات الحركية ونقلها للمرسل، الأمر الذي جعل الخطاب المنطوق أعظم أثراً وانتشاراً من المكتوب؛ لأنه احتفظ بانفعالات المرسل وأدواته الأدائية التي تؤثر في المتلقي وتقنعه وتثيره تجاه الحدث، فيشارك المتلقي وجدانه. ولقد اهتم علماء اللغة بالخطاب المنطوق، وتنبه إليه السياسيون" وقد ألح علماء العرب القدماء

---

(١) ارجع إلى: لغة الخطاب السياسي، الدكتور محمود عكاشة ص١٤٠ وما بعدها.

على أهمية المشافهة والسماع، وأن اللغة أصوات مسموعة، قبل أن تكون مكتوبة، وأن الخط تابع اللفظ ومن ثم جاء في كتبهم من التحليلات لظواهر التأدية، ولإبلاغ الكثير من المفاهيم الجديدة[١].

وقد أدرك السياسيون والإعلاميون أثر الخطاب المنطوق في عملية الاتصال، ودوره في عملية الإقناع، وتبليغ القصد، فاستخدموا بعض سماته في خطبهم المكتوبة، ولذا نجد بعض ظواهر الخطاب المنطوق في الخطاب المكتوب، ونجد تداخلاً بينهما، فالسياسيون يميلون إلى الأساليب المحكية لا المقروءة، ويقرءون الخطاب المكتوب على طريقة المنطوق، وقد يزيدون عليه أثناء القراءة من منطوقهم بعيداً عن النص، ويستعينون بالحركات والإشارات خلال القراءة، فنجد محاكاة للخطاب المنطوق بنية وأسلوباً وإلقاءً، "وما ذلك إلا لجذب (السامع) وإبعاده عن جفاف النص، فيكون إيجابياً عند استماعه إلى الكلام"[٢]، والحركات والعناصر الصوتية عوامل إثارة وتنشيط للتلقى.

ولغة المشافهة تفترض وجود معلومات وإدراك مشترك بين المرسل والمتلقي، وهذا الإدراك المشترك يعين على فهم الخطاب؛ لأنها تملك القدرة على التبليغ والإفادة.

فاستخدام اللغة الحية التي يمثلها الخطاب اليومي تؤدي إلى الاستجابة؛ لأنها فاعلة ومؤثرة وتعايش الواقع الحياتي اليومي الذي يعيشه طرفا الاتصال وتعين المتلقي على فهم قصد المرسل، والعامل البصري المتمثل في رؤية الحركات والإشارات، يشارك العامل السمعي اللفظي في تشكيل الفكرة، فالمظهر الخارجي وتعابير الوجه، والإشارات والحركات كلها تسهم في فهم الفكرة ومن ثم تشكل لغة المشافهة بما لها من خصائص أسلوبية وصوتية ونغمية ذَخراً كبيراً لكل من يوظفها في خطابه[٣] إلى جانب التراكيب الخاصة وطرائق الإلقاء، فهم جميعهم يعكسون طاقة حركية كبيرة توضح الفكرة، وتكمّلها، كما أنها تنقل للمتلقي صورة المرسل كطريقة التفكير وتسلسل الأفكار زيادة عما فيه من شحنات المشاعر التى تكشف صدقه فى القول، وهذا جميعه يزيد من فاعلية الخطاب وتأثيره على المتلقي، ومن هنا كانت الخطابة المرتجلة ذات تأثير كبير على مشاعر المستمع؛ لأنها تأتي عفوية ممثلة للجوانب

---

(١) ارجع إلى: الإعلام والتأثير والتأثر، مجلة اللسانيات العربية والإعلامية جامعة تونس ١٩٨٩ ص٣٦٧.

(٢) أضواء على الدراسات المعاصرة ص٢٠٤.

(٣) ارجع إلى: علم اللسان، رضوان قضماني. دكتور، بيروت، ١٩٨٤م ص١٢٢.

الصوتية والأسلوبية والنطقية. وهناك مؤثرات تصاحب الخطاب الشفاهي مثل: شخصية المرسل وعلاقته بالمتلقي وموضوع الخطاب، وأسلوب الأداء، والمكان، والحركات الجسدية.

ولهذا وجب على المتكلم أن يعي وعياً تاماً أهمية العناصر الصوتية التعبيرية في كلامه، وأسلوب نطقه، فهذه الجوانب تشكل منظومة صوتية نغمية متكاملة لابد أن يتقنها، ويسلّم بجميع جوانبها؛ لأنها تؤثر في حواس المستمع ومشاعره، ومزاجه، وإرادته[1].

وهدف السياسة الشمولي الهيمنة السياسية على الجمهور، وفرض سلطانها عليه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، قال شليجر: "إن هدف السياسة الشمولي توجيه حياة المتلقي إلى سلطتها[2].

والخطاب العربي مثل غيره من الخطابات محمل بالكثير من قوة السلطة وتأثيرها، وله السبق في ذلك، ويمثل هذا انعكاساً مباشراً للعلاقة التي تربط السلطة بالجماهير فللسلطة حضور كبير في خطابات المؤسسات السياسية، واللغة هي الأخرى متسلطة، ولها نصيب من السلطة، فمنها سلطة المعنى وأثره في النفس، وسلطة التباعية للمعنى، وسلطة الأسلوب، وسلطة نظام اللغة القواعدي، وهي سلطات تعلو سلطة الدولة فلا يستطيع المتكلم التحلل منها، فكل متكلم يتحمل تبعات اللغة التي يتحدثها، وتعد الأخيرة الأهم من سوابقها.

والسياسيون يتواصلون مع الجماهير باللغة، وهي أهم قنوات الاتصال السياسي، وظهر علم حديث يعرف بالاتصال السياسي**Political communication**، وهو العلم الذي يبحث التفاعل بين طرفي الاتصال من خلال قناة معينة حول قضية معينة.

وتتبين العلاقة بين الاتصال والنظام السياسي من خلال ثلاثة مستويات هي: الفرد، والجماعة، والنظام السياسي للفرد في إطار الإنجازات السياسية على الصعيدين الخارجي والداخلي، ويحرص على إقناعه بقيمة دوره في حياته وأثره فيها، وأهمية ولاء الفرد للنظام ومساندته، ويرغّبه في بعض أنماط السلوك السياسي التي يتبناها النظام.

ويقدم نفسه للجماعة في إطار ثقافتها واتجاهاتها، ويبث فيها قيماً سياسية يراها صالحة للجماعة، ومصلحته، وبقائه في السلطة، ويتبنى في ذلك نسقاً عاماً ليحكم أمرها ويستبد

---

(١) ارجع إلى: علم اللسان، رضون قضماني. دكتور، بيروت، ١٩٨٤م ص١٢٧.

(٢) مدخل لدراسة النص، جولد شليجر ص١٨ – ٢٠.

بقرارها، ويقدم خطاباً خاصاً للأقليات أو الأعراق التي تعيش داخل الكيان الجماعي، فيتودد إليها في إطار موروثها الخاص وثقافتها وأزماتها.

والمستوى الثالث شمولي يشمل الفرد والجماعة والسلطة، والنظام السياسي يمد شبكاته داخل هذا الكيان ليجد لنفسه سلطة عامة من خلال التوجيه والإقناع، والضغط والهيمنة السياسية، ويجند لذلك جنوداً عديدين، من السلطة والجيش، ومؤسسات الدولة، ووسائل الإعلام لسانه في ذلك، وأهم جنده.

واللغة تعكس طرق الحياة الخاصة بكل شعب، ودرجة تقدمه ومستواه الثقافي، وموروثه، وقيمه ومعتقداته، فهي المرآة التي تعكس حقيقة الأمم، وتكشف عن الضمير الإنساني وتعرّيه للآخرين فيروا منها شخصية المتحدث، فاللغة تعد بمثابة الرموز المشتركة بين المجتمع، ولها أثر كبير في تواصله، وأثر أكبر في توجيهه، والتواصل اللغوي يفترض عمليتين متقابلتين: إحداهما: الترميز **l'ecodage**، ويسير من الأشياء إلى الكلمات، وثانيتهما: فك الرموز **le décodage**، فيعرف ما يخفى وراء الكلمات، فلا يوجد فكر دون لغة، وليست اللغة لباساً للفكر فقط، بل جسد الفكر نفسه[1].

واللغة ملكة إنسانية؛ لأن الإنسان مفكر وليس مجبولاً على الفعل، ومن ثم اللغة أهم خصائصه من بين الأحياء، فنسب إليها ونسبت إليه، فالإنسان لديه القدرة على تعلمها، فهي خِصّيته.

والخطاب السياسي لا يعتني بالفكرة أو المضمون، أكثر من عنايته بالصنعة اللفظية، ومن ثم فالمادة اللفظية قليلة ومباشرة، ولكن دلالتها تتسع لمضامين الأفكار السياسية، والسياسي لا يصنع لغة أدبية هدفها جمال المعنى، ولكنه عنايته بالفكرة التي يقفز إليها من أقرب موضع، ليسبق بها إلى المتلقي.

وقد يضمن السياسي خطابه أساليب الخطاب الأدبي، فيكسوه لفظاً جذاباً وأداءً مميزاً، ويطعمه بعض التراكيب الجمالية ويحشوه بعض الاقتباسات، ولكن هذه الأساليب ليست هدفه؛ لأنه لا ينشد مباراة كلامية، بل يتبارى مع خصومه في ساحات ضارية تحتاج لغة

---

(١) ارجع إلى: بنية اللغة الشعرية. جان كوهن، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، المغرب ١٩٨٤ ص٣٣.

مباشرة ومعلومات تحملها جمل قصيرة، وأشكال مكثفة وملموسة نابعة من السياق المباشر بين المتكلم والمستمع، والتكرار السريع، فيتمكن المتلقي من فهم المراد، ويستوثق منه المعنى ويعتمد على بعض الخصائص الأسلوبية وأهمها التكرار الذي يعد سمة بارزة في الخطاب السياسي ويعطيه إيقاعاً، يزيح عنه الرتابة، ويعطيه وحدة صوتية متناسقة تحفظ استمرار عملية الاتصال، وتجدد التلقي، والخطاب العربي تكراري مبني على التوازي، والتكرارية فيه أقوى وسائل الإقناع. ويعتمد المرسل فيه على اللغة المشتركة الرسمية، ويقدمها في نسق واحد، فالهدف التأثير السريع والإقناع بمضمون الخطاب، فيوظف لغة الخطاب اليومي لتكون قناة مباشرة إلى وجدان الجمهور.وتسهم اللغة إسهاماً كبيراً في شرعية النظام السياسي، فهي الأداة التي يتواصل بها النظام مع الجماهير، والقسم المشترك بينهما، وتحمل طابعًا سياسياً مميزاً عندما تتجاوز لغة الخطاب اليومي والتعبير الرمزي في التواصل بين الأفراد إلى لغة متميزة تعبر عن مضامين سياسية، والسياسيون هم الذين يسيسون اللغة فيكسونها زياً سياسياً باصطلاحات سياسية ودلالات خاصة، ومفردات مولدة، فاللغة السياسية سياسية المضمون والمعلومات والمحيط السياسي[1]. والإقناع **Persuasion** في الخطاب: خضوع المتلقي لمقاصد مضمون الخطاب، وتصديقه بها، أو قبوله مضمون الخطاب، وتسليمه له، وهدف الخطاب السياسي الحديث – في المقام الأول – الإقناع، ولهذا تأتي لغته واضحة أقرب إلى الخطاب اليومي الذي يستخدمه المثقف العادي، وليست هدفًا للدلالات المجازية أو الصور البلاغية المعقدة، وقد تأتي في بعض الأحيان مخالفة لقواعد اللغة تحت تأثير الخطاب اليومي واللغات الأخرى، فالخطاب السياسي يقفز إلى الفكرة مباشرة فليس للصور والوجوه البلاغية حضور فيه إلا قليلاً، ويرجع سبب ذلك إلى أن الخطاب يكلف بالفكرة والإقناع دون الجانب الإمتاعي الذي يكلف بالدلالات والجماليات[2].

---

(١) ارجع إلى: اللغة العربية في وسائل الإعلام، إعداد مجموعة من المشاركين في مؤتمر علم اللغة الأول، كلية دار العلوم، قسم علم اللغة، بحث قوة الوصف في دراسة لغة الاتصال السياسي ورموزه، الدكتور أحمد بن راشد بن سعيد ص٥.

(٢) أعد الصديق الموريتاني الدكتور الشيخ أحمد ولد سيدي بحثًا قيمًا بعنوان: تحليل الخطاب السياسي (دراسة إتنوغرافية اتصالية في الخطاب السياسي الموريتاني، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم الدراسات اللغوية والأدبية، نوفمبر ١٩٩٨م، وتوصل فيه إلى نتائج قيمة، وهو من الدراسات الفريدة في هذا النوع من الدراسات الحديثة. وارجع إلى كتابنا لغة الخطاب السياسي.

والخطاب السياسي الحديث ليس فيه مؤثرات بلاغية كالتي يتمتع بها الخطباء السياسيون في خلافة الإسلام، ويرجع ذلك لأسباب منها: اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية، والوعي الثقافي واختلاف لغة الخطاب واختلاف مستوى إدراك المرسل والمتلقي للغة، وكذلك اختلاف العصر وآلياته. فوسيلة الإقناع الأكثر فاعلية قديماً هي التأثير الخطابي في المتلقي، فإذا نجح المتحدث في إقناع الجمهور خطابياً عن طريق إثارة العواطف والانفعالات، فقد حقق إنجازاً إقناعياً، ولكن ظروف المتلقي تجعله أكثر واقعية من سابقه؛ لأنه يستحضر دائماً أمامه البدائل العقلية، واللغة تؤدي دورها في السياسة، مثلها مثل جميع الأدوات التي يستخدمها السياسيون، فاللغة كما قال ابن جني (ت ٣٩٢هـ) "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[١] والسياسيون يستخدمونها أداة لتسييس الشعوب وفق إرادتهم، ونزعاتهم، كما أنها تعبر عن الأفكار والمشاعر والاتجاهات كما يقول دي سوسير اللغة "نظام من الإشارات system of signs التي تعبر عن الأفكار"[٢]، وتمثل ظاهرة اجتماعية، فاللغة أداة الاتصال بين أفراد المجتمع قال سابير: "اللغة وسيلة تفاهم خاصة بالإنسان، وغير غريزية فيه تمكنه من تبادل الأفكار والوجدانات والرغائب بوساطة رموز صوتية اصطلاحيّة"[٣].

فالإنسان ليس مجبولاً على اللغة بل يتعلمها من المحيط، فهي ليست سليقة كما زعم القدماء الذين رأوا أن الفصاحة طبع أو سليقة في العرب الأقحاح، بيد أن الفصاحة يكتسبها الإنسان من محيط لغوي فصيح. إن من أبرز الوظائف اللغوية وظيفتها في الاتصال والإبلاغ والإقناع والتعبير عن الذات، ومن ثم وظَّفها السياسيون قديمًا وحديثًا لتحقيق مقاصدهم.

ويرى بعض العلماء أن وظيفة اللغة الأساسية هي وظيفة إعلامية، وقد زاد من وظيفتها، اختراع الكتابة والطباعة، والمذياع والتلفاز، وهو ما أحدث ثورة إعلامية أدت إلى نمو الاتصال[٤]. وقد استفاد السياسيون من تلك المخترعات في توجيه الخطاب السياسي، وزادوا من عنايتهم باللغة أداة تأثير في المستقبلين، وإقناعهم بالإيمان بمبدأ، أو تغيير

---

(١) ت (٣٩١)، الخصائص: ابن جني: أبو الفتح عثمان بن جني تحقيق محمد علي النجار، بيروت ط٢، ٣٣/١.

(٢) علم اللغة العام: ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دي سوسير : فردينان، بغداد ١٩٨٥م، ص٢٧.

(٣) اللسان والإنسان: حسن ظاظا، دكتور، ط١٩٧١م مصر ص٢٨، ٢٩.

(٤) مقال اللسانيات والإعلام والتأثير والتأثر: دكتور هادي نهر، مجلة اللسانيات العربية والإعلامية، جامعة تونس ١٩٨٩ ص٤٥٤.

سلوكهم[1]. ولغة الخطاب لغة توجيه وإقناع، وتحتوي على أدوات خطابية مؤثرة، لكنها لا تحتوي على تراكيب مجازية بقدر ما تعني الفكرة صراحة، فقد يستعين المرسل بمؤثرات بلاغية مثل التكرار والتضاد، والترادف، والوصف، لكنه لا يبالغ في التراكيب المجازية، فالغاية من خطابه الاتصال والتبليغ، ويستعين أثناء الإرسال بأدوات تثير المستقبل وتقنعه وتثيره. ويعد الخطاب اليومي هو أحد أدوات رجال السياسة في مخاطبة شعوبهم، خاصة خطاب الثورة، حيث نجد الخطاب الناصري والساداتي كليهما يطعّم اللغة الفصحى بمفردات وتراكيب يستخدمها الخطاب اليومي، لما له من فاعلية مؤثرة على الشعب، وما يتضمنه من حيوية، كما أنه يعطي إحساساً للمتلقي بالانتماء والولاء والدفء، فالخطاب المستخدم هو خطاب الشعب.

ولا يجد المتلقي صعوبة في فهم قصد المرسل، وما رغب في توصيله؛ لأنه يملك الأدوات التي تعينه على فهم خطاب المرسل وفك شفرته، فالخطاب اليومي سهل الفهم لدى السامع. ويحتوي الخطاب السياسي على مفردات وتعابير تعطيه حساً جمالياً، ودلالة واسعة عن أصل معناها اللغوي، فنجد مفردات سيّارة في الخطاب، مثل: العدل، الشورى، السلام، وغيرها من المفردات التي توحي بالثقة والأمان، ونجد تراكيب تؤدي نفس الدلالة مثل "حكمة العدل الدولية ، "هيئة الشعوب للسلام"، "العدالة الاجتماعية"، هيئة الإغاثة، هيئة حقوق الإنسان.

وقد يعدل المرسل عن الاسم الصريح بمفردات أعمق دلالة وأثراً في نفس السامع مثل "الوطن العربي" و"الأمة العربية" وقد يكون للوطن دلالة ضيقة تعني القطر مثل "مصر" و"الأمة" قد تعني أبناء الوطن، مثلما جاء في خطاب التنازل عن العرش للملك فاروق "وحرصًا على أمتنا" يعني مصر، وهى فى الخطاب القومى تعنى العرب جميعهم، وتعنى فى الخطاب الدينى جميع المسلمين ومن فى ذمتهم من أهل الكتاب.

والمتلقي لا يجد صعوبة في فهم تلك المفردات أو التراكيب، لأنها جميعاً متداولة، وإن كان فيها مفردات ذات دلالة جديدة، فإن وسائل الإعلام تلوكها استخداماً حتى تجعلها مألوفة للمتلقي وتقرّب دلالتها. وتصبح بذلك مفردات الخطاب السياسي مألوفة تداولياً وذات دلالة لدى أوساط الشعب متعددة المشارب والثقافة.

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، دكتور، الكويت ١٩٧٨.

ويستعين السياسي في لغته ببعض الأساليب البلاغية، ويختار مستوى معيناً من مستوياتها، يراه صالحاً لجمهور محدد، والهدف إقناعه ببعض البرامج السياسية، ولا يتعامل مع البلاغة على أنها فن بلاغي بل يعدها جزء من نظام اللغة التي يوظفها في الخطاب، فليست هدفاً في الخطاب بل وسيلة للمواءمة بين الموضوع والشكل أو بين المضمون والتعبير، فالغاية من الخطاب الإقناع، وهو الهدف الرئيس، وتحدد لغة الخطاب السلطي من خلال العلاقة القائمة بين المرسل والمستمعين، ويتأثر اللغة والمضمون بهذه العلاقة.

ويختار رجل السلطة الكلمات والتعابير والجمل، ويجعل للجماهير حضوراً في خطابه بهذه الأدوات اللغوية، ويستعين بأساليب تحافظ على استمرار عملية التلقي، وتجعل المتلقي حاضر الذهن، وسريع الاستجابة، ويستعين بموروث ثقافي، ومعلومات عسكرية، واجتماعية، وسياسية، ويعزز بذلك خطابه ويغنيه بالمضامين والدلالات الجديدة، وتؤثر شخصية رجل السياسة هي الأخرى في الجمهور، وتؤثر كذلك مواقفه السياسية، وانتمائه الوطني، ودوره الدولي، وهذه العوامل مجتمعه تجعله شخصية مؤثرة (ميكانزمية أو ذات كارزما).

وللسياق دور كبير في عملية الإقناع، فالمرسل يوظف كلماته في سياقها الذي يناسبها، وسياقها الخارجي أيضاً، وذلك من خلال الموقف الاجتماعي الذي يجمع المرسل بمتلقيه، والعناصر الخارجية التي يوظفها المرسل في الخطاب، ونوع الخطاب مكتوباً أو منطوقاً.

وهذا كله يتطلب شكلاً لغوياً مألوفاً وبسيطاً ومتماسكاً ومركزاً أو مكثفاً **Compact**، وأن لا يكون الخطاب رسمياً متكلفاً جامداً، فالخطابات التي تتمتع بأساليب بلاغية وتراكيب حية تزيد تفاعل الجماهير ومشاركتها في الاتصال، وتحقق رد فعل عال.

وتحتاج عملية الإقناع أيضاً إلى أن يكون الخطاب منطقياً متسلسلاً ومرتباً، وموضوعياً، ويتمتع بوضوح الفكرة وقرب المعنى ورصانة الحجة وترابط الشكل واتساقه مع المضمون، وملائمته العالم الخارجي واتصاله به.

وذهبت بعض المدارس الحديثة إلى أن وظيفة اللغة الأساسية الإقناع، والإغراء والإعجاب والتلاعب والتبرير ويتبع المتكلم في ذلك تقنيات أسلوبية[1].

---

(١) ارجع إلى: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد محمد، عالم الفكر ٣٨/٢٠٠٠م ص٥٣.

وللإقناع ملامح رئيسة في الخطاب؛ وهي: أن يتوجه إلى مستمع، وأن يستخدم المرسل لغة خطاب المتلقي أو اللغة المشتركة، وتعد لغة الخطاب اليومي الذي يستخدمه الجمهور لغة الإفهام والتأثير والإقناع.

وأن يبدأ بمقدمات مقبولة وينتهي بنتائج حتمية مقبولة وتكون نتيجة مباشرة، وأن يكون الموضوع أو المضمون موضع اهتمام الجمهور أو القضية أو الهدف، وأن يكون هدفاً رئيساً للمرسل، وأن يكون مؤمناً به ملماً بأبعاده، وأن يكون ملماً بطبيعة الجمهور وعليماً بمشاربه وخبيراً بالمؤثرات التواصلية معه، وأن يكون واعياً بحال الجمهور ومقتضى إفهامه والتأثير فيه، وأن يستعين بالعناصر التي تحافظ على استمرار التواصل والتلقي نحو العناصر اللغوية المؤثرة، والتعبيرات الصوتية، والحركات البدنية، وأن يختار توقيتاً مناسباً للخطاب، وقناة تتناسق مع الموقف.

وقد عالج علماء العربية أسلوب التواصل مع مستويات المتلقين، وجعلوا لذلك أنساقاً من التواصل تربط بين تقويم الخطاب **Evaluation** والعناصر التأثيرية التي يصبغ بها المرسل خطابه ليوافق حال المتلقي، ويعتد في ذلك بدرجة قبوله مضمون الخطاب، وذلك في إطار موقفه من تلقي الخطاب، وقسموا على هذا أنماط المتلقين إلى:

- متلق منكر لمضمون الخطاب، ويحتاج المرسل في إقناعه إلى وسائل قوية مؤثرة، يعتمد فيها على البراهين والحجج. ويوظف فيها عناصر بلاغية متعددة في خطابه.

- متلق متردد، ويحتاج إلى جهد أقل من سابقه (المنكر)، ويقدم إليه المرسل مضامين تزيده ثقة، وتعطيه أماناً، ويستخدم معه أساليب هادئة، تعززها بعض الشواهد المثالية، والأنساق الاجتماعية التي يستأنس بها.

- متلق خالي الذهن، وهذا النوع يحتاج معلومات منظمة، وأساليب موجهة لتوعيته والسيطرة عليه، ليصبح تابعاً لسلطة الخطاب.

- متلق تابع، وهو الذي يخضع لأيدلوجية الخطاب، ويقدم إليه الخطاب مضامين جديدة تجدد ولاءه وتقوي صلته بالخطاب، ويشعر المرسل بأنه جزء من الخطاب ومحور قضيته، فيقدم إليه خطاباً شمولياً يجسد منظومة السلطة والموالين لها[1].

---

(١) ارجع إلى: بحوث في تحليل الخطاب الإقناعي، الدكتور محمد العبد، دار الفكر العربي ص٤١.

ويعد الاتصال بالجماهير علم اجتماعي جديد معقّد يوجّه صوب جمهور كبير نسبيًا غير متماثل، مختلف المشارب، متعدد الثقافة والميول، وقد يزداد الأمر مشقة على المرسل عندما يخاطب جمهوراً خارجياً يتعدى حدود الوطن يحتاج إلى أدوات إقناعية تناسبه، وهذا يلزم على المرسل أن يوائم بين خطابه ومن يوجه إليهم، وأن يحتوي الخطاب على مضامين موجّهة إلى المتلقي[١].

ومثال ذلك خطاب السادات في الكنيست الإسرائيلي، الذي استخدم فيه أدوات معرفية مثل التاريخ والدين حيث استشهد بنصوص من القرآن الكريم، والكتاب المقدس (العهد القديم، والعهد الجديد)، ثم خاطب ضمير العالم، وطلب شهادته، ثم خاطب ضحايا الحروب ومحبي السلام، إلى جانب المفردات التي دار محتواها حول رغبته الأكيدة في السلام أمام العالم، ودعّم خطابه بموقفه الشخصي، وأبدى للمتلقى ثقة عالية، واعتد بذاته وبموقفه، وتحدث عن قوة وثقة.

إن بث الرسالة يتطلب من المتكلم أن يعي ظروف الاستقبال لدى المتلقي وعليه أن يلتمس المؤثرات الخطابية فيه ومعتقداته، وأن يفهم سلوكه الذي يعبر عن تأثره بفعاليات الكلام أو عدم استجابته، فيلجأ المتكلم إلى أدوات أخرى علها تجد طريقاً إلى استجابة المتلقي[٢]. فالمرسل في الخطاب المباشر يمكنه ملاحظة رد فعل الجمهور، فيعدل من الخطاب ويضيف إليه، ويتوقف عند بعض المواضع، ويسرع في أخرى، وينوع في طبقة الصوت وسرعة الأداء، ويستعين بالنبر والتنغيم ليؤثر في الجماهير، ويلهب حماسهم، ويستبد بمشاعرهم، ويراقب حاله خلال الأداء.

ويستعين ببعض الحركات وتعبيرات الوجه في الخطاب المقروء في التلفاز، ويستعين كذلك ببعض خصائص الخطاب المنطوق ويوظفها، ليجعله خطاباً منطوقاً مؤثراً، ولكنه يقدم المعنى كاملاً باللفظ في الخطاب المكتوب؛ لأنه يفتقد إلى العناصر الدلالية التي يستعين بها المتكلم من خارج اللغة، فالكاتب يضمن الخطاب كل المعاني، ويشرح ويصف، ويعقب ويكرر الجملة بلفظها أو يكرر معناها، ويتخير اللغة والمؤثرات اللفظية، ويستحضر الجمهور

---

(١) ارجع إلى: اللسانيات والإعلام، التأثير والتأثر: مجلة اللسانيات العربية والإعلامية ص٣٥٥.
Haya Kawas. I. Language in thought. Povanech Inc. New York 1963. P. 7.

(٢) ارجع إلى: علم الدلالة السلوكي ص٩١، والتأثير والتأثر، اللسانيات العربية والإعلامية ص٣٧.

في إنتاج النص، ويتوقع رد فعله، ويتحسس مواطن القوة فيه، فيؤديها على وجهها، ومواضع اللين فيتطلف فيها مراعياً سياق الموقف في أدائه. وقد وضع علماء العربية قواعد عامة في الاتصال، وأشهرها مراعاة مقتضى الحال، وتعني في المقام الأول حال الجمهور المتلقي، وقد أكدت ذلك المدارس الغربية الحديثة، فالمرسل مطالب بأن يعي مقامات مخاطبيه ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية ، والمذهبية واللغوية، فاللغة المشتركة تفتح طريقاً مباشراً إلى الفهم السريع والتفاعل المباشر.

وحضور المرسل في الخطاب يعمق وجوده وشخصيته عند المتلقي، وذلك عن طريق لغته الخاصة وفكره وشخصيته المستقلة، والصفات السياسية التي يتمتع بها وحضوره داخلياً وخارجياً، وهذه الشخصية تتجلى واضحة في اختياره المفردات والتعابير والجمل والموضوعات، فهي تعكس حجم شخصيته وقوة تأثيره وإقناعه.

وللاقتناع " **conviction** " بالمرسل وموضعه أهمية كبرى في الخطاب، وهذا الاقتناع يقوم على دوافع نفسية، وهي الحالة التي يعيشها الجمهور، والمرسل يقوم بتعبئته نفسياً وتهيئته لاستقبال خطابه الذي يمس ظروف الجماهير مباشرة ويشاركهم حياتهم ويخالطهم.

وللاقتناع دوافع منطقية عمادها الظروف التي أنتج فيها الخطاب وعلاقته بها، فالمتكلم يشحذ الهمم، ويحمس الشعب ويرفع درجة استعداده، ويدعو إلى تعبئة عامة عندما يهدد أمن البلاد خطر عسكري، وموضوع هذا الخطاب يتضمن أفكاراً حربية خلافاً لموضوعات التنمية والإصلاح التي لا تقال في ظروف الحرب ولا تتسق معها.

ووضوح الخطاب من أسباب الاقتناع به وسرعة الاستجابة إليه فالخطاب الذي يخلو من الغموض والتعمية والاضطراب وغرابة اللفظ، وتعقيد التراكيب ينفذ إلى عقل المتلقي سريعاً دون عائق يؤثر في هدفه، فالجمهور ينشغل بالنصوص المضطربة وإعادة إصلاحها عن فهم الخطاب، فاجتناب كل ما يصرف المتلقي عن فكره الخطاب سبب رئيس في تحقيق مقاصده.

إن الإقناع **persuasion** يعتمد على دراسة طبيعة المتلقي، وأفضل وسائل الاتصال به، وانسجامها الإيجابي معه، فالمرسل يؤطر الخطاب، ويجعله ملائمًا لجمهوره، وتتوقف درجة الاقتناع به على قدرة استيعاب مدارك الجمهور، واستمرار عملية الاتصال، ورد الفعل الذي يعكس درجة الاستجابة، والاستعانة بالصوت والصورة والحركة والمكان والزمن، والرموز في الاستدلال يعد أساساً في الإقناع، وتأكيداً لصدقه.

والاتصال المباشر والتفاعل مع العالم الخارجي، والجمهور والمواجهة مع الجمهور مما يزيد فعالية التأثير، وهذا النوع من الاتصال يستفيد من كل عناصره التواصلية والتأثير التي تتعرض للتدمير أحياناً في الاتصال غير المباشر، فالمتلقي المباشر يستقبل الخطاب بأذنيه وعينيه ووجدانه، ويؤثر فيه المحيط الخارجي مباشرة، ويتمكن من معرفة أبعاد الاتصال؛ لأنه يوظف له كافة حواس الاستقبال، وحضور الجمهور حافز آخر كالمرسل، يمنحه طاقة في الأداء، ويلهمه فكرة جديدة، ويعطيه صورة دقيقة لأثر خطابه، فيزيد فيه ويعدل منه وفقاً لمقتضى حال الجمهور.

ورد الفعل مؤشر على درجة الاستجابة، فالتفاعل مع الخطاب يحقق حالة نفسية قد يكون دافعها الحماس **l'enthousiame**، الذي يكون نتيجة مباشرة لتفاعله مع الخطاب، أو دافعه الغضب مما تتضمنه الخطاب أو الإثارة، فهذه مشاعر مباشرة عبرت عن رد فعل الجمهور المباشر نحو الخطاب، ويمثل رد الفعل النتيجة النهائية في الاتصال، فيستكشف المرسل منه درجة الفهم والتأثير والاقتناع سلباً أو إيجاباً.

** ** ** **